مفهوم «العنف» في القرآن الكريم
- سيْرورةً وصيْرورة-

د.عيسى لحيلح.
جامعة جيجل

مقدمة:

إن القرآن الكريم، وهو أصْدق وأدق مَنْ يعرّف لنا الإنسان، يقدّمه لنا في صورته«الخام»، قبل أنْ تهذّبه الأديان، وتصقله الأفكار، ويُرشده المجتمع إلى القيم الاجتماعية، من أجْل تحقيق سمُوّ، وتَطلُّعٍ نحو كمالات ما، يقدمه لنا من خلال صفات مَرْكُوزةٍ فيه خلْقا، وعليها مدار حياته ومناط رسالته، يقدمه لنا- ضعيفا: ﴿وخُلِق الإنسان ضعيفا﴾- النساء٢٨- ومصلحياً أنانياً: ﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنْبه أو قاعداً أو قائماً، فلماً كشفنا عنه ضُرّه، مَرّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضُرّ مسّه﴾- يونس٢٨- و كفّاراً ظلوما: ﴿إن الانسان لظلوم كفّار﴾- إبراهيم٣٤- وخصيما: ﴿خُلِق الإنسان مِنْ نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين﴾- النحل٤- وعجولاً: ﴿خَلِق الإنسان من عجل﴾- الإسراء١١- وكفوراً: ﴿وكان الإنسان كفورا﴾- الاسراء٦٧- متنكّرا يؤوسا: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإن مسّه الشرّ كان يؤوسا﴾ الإسراء٨٣.- قتورا: ﴿وكان الإنسان قتورا﴾- الاسراء١٠٠.- ظلوما جهولا: ﴿إنه كان ظلوماً جهولا﴾-الأحزاب٧٢- قنوطا: ﴿لا يسأم الإنسانُ من دعاء الخير، فإذا مسّه الشرّ فيؤوس قنوط﴾- فصلت٤٩.- هلوع جزوع منوع: ﴿إن الإنسان خُلق هلوعا. إذا مسه الشرّ جزوعا. وإذا مسّه الخير منوعا﴾- المعارج١٩-٢٢- طاغيا:﴿إن الإنسان ليطغى﴾- العلق٦.- كنود محبّا للخير:﴿إن الإنسان لربّه لكنود وإنه على ذلك

لشهيد، وإنه لحبّ الخير لشهيد﴾- العاديات٦-٧-٨.- مجادلا: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدل﴾- الكهف ٥٤.

***المحتوى الفحويّ للإنسان محتوى عُنْفي**

وللواحد منا أن يتصوّر أو يتخيّل هذه المعطيات الابتدائية الأساسية وهي تتفاعل في نفس الإنسان ضمن محيط طبيعي مقدَّرِ الأرزاقِ منظَّم الأقوات، للواحد منا أن يتخيّل أيّ عدوانية وأيّ عنف ينتجان من تحْريض هذه المعطيات الابتدائية ضمن نَسق نفسي وبيولوجي، يبحث عن الإشباع، والإشباع فقط، قبل أن تتدخّل الشرائع بوضْع البدائل؟

وحسْبما يبدو، فكلّ الصّفات التي مرّت صِفَاتٌ سلبيّة، لا تصْلح أن تكون محتوى فحوياً ومرجعاً سلوكياً لإنسانٍ يعيش ضمْن مجتمع. لكنها صفات تعطي للإنسان قوةً تحريضيّة ابتدائية لا يمكن لها أن تفتر، وبها يبحث الكائن البشري عن تكامله وكماله في عالمه الإنساني والاجتماعيّ.

وأنّ هذه الصفات بقوة جدبها وتحريضها تكون عالم توازن في حياة الكائن البشريّ، وهو يطمح إلى مستوى إنسانيته. وهي نفس الصفات التي تعْمل الشرائع على تنميتها وتزكيتها وتهذيبها من خلال ربْطها بمصدرٍ أعلى للخير والقيم، يرى فيه الإنسان خيْرا أغلى وسعادةً أبْقى ولذّ أبديّة، ومِن ثمّ «القرآن بتوغُّلِه العمودي العليم بأعماق الإنسان وتكوُّنه الذاتي، يحدّثنا في أكثر من مؤضع، وبمواجهة إعلانه الأوّل عن تفضيل بني آدم..عن نقاط الضعف والسلبيّة في سلوكية الإنسان.

أولا: لكي يوقفه على الحقيقة فلا يشذّ ولا يطْغى معتقداً أنّه قادر على صياغة أيّ شيء والتحكّم في أيّ واقعة، وصنْع تاريخه ناجزاً كما يريد.

ثانياً: لكي يستفزّ فيه قوى التحدّي والمقاومة والاجتياز للتفوق على ضعفه وعجزه والتوغّل -أكثر- في قلب العالم، وهو أشدّ قوةً وأمضى عزيمة، وأعمق توحّداً في نسيجه الروحي الماديّ على السواء.

ثالثا: لأنّ الإنسان – وبموضوعية تامة- هكذا خُلق، يحمل في اللحظة الواحدة والموقف الواحد عناصر قوّته وضعفه، مادام قد رُكّب وفق هذا الأسلوب»[1]

وربما هذا الذي أدركته الملائكة وتصوّرته أوّل مرّة، حين استنتجتْ – بدءاً – أنّ هذه الجبِلّة عدوانية تمارس العنف:﴿قالوا: أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك﴾- البقرة٣٠ .

وهذا المعنى العميق هو الذي أدركه الشاعر العربيّ القديم، حين قال:

والظلم من شِيَمِ النفوس فإن تجدْ * ذاعِفّة فَلِعِلّةٍ لا يظْلِمُ -(المتنبي)

وأحيانـــــاً على بكْــــرٍ أخينا * إذا ما لم نجدْ إلاّ أخانا -(القطامي)

وهذا ما يؤكّد عليه «بيار كلاشتر» عندما يقول «يظهر العدوان في مجْرى الزمان كله كتقنية ترتبط بالكسب، ويكْمن دوره لدى البدائيين أصلاً في الصيد، حيث يمتزج العدوان والحصول على الطعام. فالعنف الملازم للإنسان ككائن طَبيعيّ يتحدّد إذن كوسيلة للعيش، كوسيلة لتأمين

العيش، كوسيلة لغاية كامنة في صميم الجسم الحيّ: البقاء، من هنا المماثلة بين الاقتصاد البدائيّ واقتصاد القنص. فالإنسان البدائيّ محكوم عليه، بما هو إنسان بالسلوك العدوانيّ»[2]

---

[1] – د.عماد الدين خليل: في التفسير الإسلامي للتاريخ. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٣. ١٩٨١. ص١٨

[2] نقلا عن أصل العنف والدولة/مارسيل غورشيه/ بيار كلاستر/ترجمة:علي حرب. دار الحداثة. ص٨١ .

*مفتتح العنف:

ولكن متى يبدأ«العنف»؟ إنه يبدأ عندما ينحرف الحوار، أو يتخذ مساراتٍ أخرى، أدناها العنف اللفظي، الذي يصدّقه قوله تعالى﴿لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القوْل إلاّ مَنْ ظُلِم﴾.النساء١٤٨، ومن معاني «العنف اللفظي» في عصرنا الاحتجاجات والمظاهرات والاعتصامات، وما شابه ذلك فهي مشروعة، يتّقي بها المظلومون والمقهورون الأسوأ من «العنف الحركي». من هنا يكون العنف هو انحراف حوار، ولا يكون ذلك إلاّ عندما يحسّ طرف من أطراف الحوار أنّ مصلحته مهدّدة بطريقة أو بأخرى، وأكيد أنّ حواراً ما كان بين ابني آدم، لكنّه لم يصلْ إلى نتيجة تحفظ مصلحة الطّرفين، فكان العنف، الذي نتج عن انعدام كلمة سواء يُنطلق منها ويُسْعى إليها، ويحسّ كل طرَف أنّه لا بأس عليه حين يُعطي لأنه يأخذ.وعندما ينحرف الحوار يلجأ كل طرَف إلى كل ما يراه مناسباً ليجعل موقفه ينتصر، فتتدخل القوة أو التلويح باستعمال القوة، وإلى شيء من هذا يشير شاعر الثورة الجزائرية:

نطق الرصاص فما يُباح كلامُ * وجرى القصاص فما يُتاح مَلامُ

يبدأ العنف عندما يحس فرد أو تحسّ طائفة أنّ الواقع الذي تتحرّك فيه قد صار ضدّها؛ فهي مهدّدة في وجودها المادّيّ أو المعنويّ طبْعا ليس الواقع الأشخاص، إنما الفكرة التي تُنشئ الأشخاص مجتمعاً ثم تحرّكهم، لحظتها تسعى هذه الطائفة إلى حقْن الواقع بفكرتها لينبني على حقائق لا تعمل ضدّها؛ بل تعمل ضدّ آخرين.

عند هذا الحدّ تشعر طائفة أخرى، بمدى خطورة الفكرة لو أنها أُلْقيت في الواقع، وتخلّقت في رحمه، فيبدأ العنف بين مَنْ يُدافع عن الواقع/الفكرة: ﴿ما أريكم إلاّ ما أرى، وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾- غافر٢٩. وبين مَنْ يدافع عن الفكرة/الواقع: ﴿إنّ إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾- النحل١٢٠.

فرسول الله يريد أن يطرح ديناً جديداً، ينبني عليه واقع جديد، بينما قوله – مثلا- يريدون أن يسموا بواقعهم ليصير ديناً ملزماً: ﴿إنا وجَدْنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾- الزخرف:٢٣.

*من البادئ بالعنف؟:

وبحكم أنّ الله قد خلق الناس مختلفين، وليختلفوا، فإنه سيؤمن بالنبي طائفة، ويؤمن بالملأ من القوم طائفة أخرى، وهذا طبيعيّ جداً في عالم الأفكار والديانات والمبادئ، ولكن ما هو غير طبيعي أنْ يلجأ الملأ إلى العنف، لأنهم يملكون أدوات ممارسة (القوة)

﴿وإنْ كان طائفة منكم آمنوا بما أُرسلتُ به، وطائفة لم يؤمنوا، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودُنّ في ملتنا، قال: أوَلو كنا كارهين﴾-الأعراف ٨٧-٨٨.

هذا النص الكريم يحدّد أنّ البادئ بالعنف أو بالتلويح باستعمال العنف هم الملأ المنتفعون من الوضْع القائم، بينما شعيب(ع) لم يجارهم على هذا الصعيد، وقد كان له رهْط وعصبيّة، «بل حاوَل أن يثير فيهم فكرة الانطلاق بالصراع في خطواته السليمة، ليأخذ مجاله الطبيعي الهادئ بين المؤمنين به وبيْن غير المؤمنين..إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، لأن الصراع الفكري فائدَته العمليةَ لدى جميع الأطراف، باعتبار أنه يفتح لهم مجالات جديدة للتفكير، ويهيّئ لهم كثيراً من الفُرص الجديدة للالتقاء على أرض واحدة»[1]

[1] – محمد حسين فضل: الحوار في القرآن. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط٣. ١٩٨٥. ص ٢٤.

إذن، فالعنف هنا بدأ باستعماله الجماعة، أي الدولة، لأنها في موقع مَنْ يملك القدرة على ممارسته، لأنها تملك أداته، وتستطيع أن تحرّك منظومة قانونية وفقهية لإضفاء الشرعيّة عليه، وتستطيع أن تفعل كل ما يقنع العامة أن الجماعة/الدولة على حق، وبحكم أنّ الناس على دين ملوكهم- في الغالب - فإنهم يصدّقون ذلك، وإلى شيء من هذا يشير «جان جاك روسو» حين قال:

«الأقوى لا يكون أبداً قوياً بما فيه الكفاية لِأنْ يكون دائما سيّدا، إلاّ أن يحوّل قوته إلى حقّ، والطاعة التي يفرضها إلى واجب»[1]

وإلى شيء من هذا يشير "باؤلو فرايري"، محدّداً أنّ الذي يبدأ العنف هو القاهر..هو الحاكم..هو الذي يمتلك مصلحة ويشعر أنها مهدّدة. «ويحدث تصوّر آخر كاذب عندما يهدّد التغيّرُ في الحقيقة الموضوعيّة. مصالح الفرد أو مصالح طبقته، ففي مثل هذه الحال لا يتدخل الإنسان بالنقد الواعي للواقع، لأنّ الواقعَ نفسَه غير حقيقي، ونتيجة لذلك فلن يحدث تغيّر، لأنّ التغيير يهدّد مصالح الطبقة بأسْرها، وهكذا يجد الإنسان نفسه يتصرّف بعصبية لكوْنِ الحقيقة منحازة ضدّه، ولا يجد هذا الإنسان بُدًّا من تمثيل دوره حتى النهاية، يُنكر الحقيقة أوْ يفسّرها بصورة مختلفة.»[2]

تبدأ الجماعة/الدولة بممارسة العنف عندما تفقد الشعور بتسيير مصالح الناس، لتمتلئ بشعور قاتل مغشوش وهو امتلاك الناس ومصالحهم، ثم تشعر أنها تكاد تفقد هذه الملكيّة، حينها تمارس العنف ضِدّ كل منْ يشعر أنه غير عبْد أو غير مملوك، سواءً شعر من ذلك انطلاقا من فرديته أو انطلاقاً من شخصيته.

---

(1) -جان جاك روسو: العقد الاجتماعي. ترجمة: بولس غانم. اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع. بيروت. ١٩٧٢. ص١٥.

(2) - باؤلو فرايري: تعليم المقهورين. ترجمة: د/يوسف نور عوض. دار القلم. بيروت. ط١. ١٩٨٠. ص٣٤.

إنّ الجماعة/الدولة لا تريد الأفراد ولا تريد الأشخاص، بل تريد العبيد، والعبيد فقط.

من هذا المنظور تفهم المقولات الفرعونية، وهي تنبني على بعضها بعضاً، وينتج لاحقها عن سابقها: ﴿ونادى فرعون في قومه، قال: يا قَوْم أليس لي ملْك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون﴾-الزخرف:٥١.

فهو هنا مَلِك يملك. أما في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾-النازعات٢٤. فهو هنا ربّ يصْدِر الإرشادات والتوجيهات، وكل ما يدفع أخلاق الناس إلى الاستقامة والنزوع وِفْق رؤيته، وبمرور الزمن تتكرس هذه الإرشادات والتوجيهات لتصير أحكاماً وشرائع وقوانين، ليصير صاحبها هو الإله: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيْري﴾-القصص٣٨.

في هذا الجوّ المشْبع بالاستبداد، والنّتِن بالغرور، كيف نتصور مصير مَنْ يتحرّك ضِدّ إرادة الملك/الربّ/الإله؟.

أكيد أنّه سيوصم بالإرهاب والعنف، وأكيد أنه سيجابه بالقهر، ﴿قال: سنقتل أبناءكم، ونستحيي نساءكم، وإنّا فوقكم قاهرون﴾-الأعراف١٢٧.

«ويتضح من ذلك أنّ وجود علاقة تقوم على القهر يعني بالضرورة وجودَ علاقة يسودها العنف. ولا نعرف في التاريخ كله أن العنف قد بدأ به المقهورون، إذْ كيف يُتصوّر أنْ يكونوا البادئين وهم في حقيقتهم نِتاج ممارسة العنف ضدّهم؟!.بل كيف يمكن أنْ يبادر هؤلاء بالعنف، والعنفُ هو في حدّ ذاته عملٌ موَجّه ضدهم؟. فمن المستحيل إذاً أنّ يكون هناك مقهور بدون أن يكون هنالك عنْف قد مُورِس ضدّه، فالعنف لا يبدأ به إلاّ القاهرون الذين لا يستطعون إدراك الحقيقة في غير أنفسهم»[1]، والدّليل أنهم يسمّون غيرهم «الأرذلون».

[1] - باوْلو فرايري: تعليم المقهورين. ص٣٦.

*من العنف إلى التدافع:

وعندما تتطور مصالح الناس وتتداخل وتتعقد، يتطوّر كذلك العنف الممارَس في سبيل ذلك ويتداخل ويتعقد، ليأخذ تسمية أخرى في القرآن، وهي التدافع

يقول الله تعالى: ﴿ولولا دِفَاعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾البقرة٢٥١. ويقول سبحانه: ﴿ولولا دِفَاعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لهُدّمت صَوامِع وبِيَع وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَر فيها اسم الله كثيرا، ولينصُرَنّ اللهُ مَنْ ينصره.إن الله لقويّ عزيز﴾الحج٤٠. فكأنّ التدافع هو أنْ يحصُل العنف وفْق تخطيطٍ ورؤية واستراتيجيه، تُراعى فيها جملة من المعطيات المتداخلة المتفاعلة في آلية معقّدة من الأحداث، كما هو حاصلٌ في أيامنا هذه

هذا التدافع يجعل منه السيد حسين فضل الله ضرورة حضارية من خلال «أنّ كل إنسان يعمل في اتجاه الأشياء التي يألفها ويريدها ويؤمن بها، وفي اتجاه مقاومة الأشياء التي يكرهها ويرفضها أو يكفر بها، لأنها تعطّله عن الحصول على ما يريد..وربما يتحقق ذلك في الأفكار، وربما يتحقق في الأشياء العامة، وقد يحصل في القوى التي تحيط به، فإذا لاحظ أن هناك فكْرا يقاوم فكره، أو شيئاً يواجه بعض الأشياء التي يحبّها، أو قوة تريد أنْ تصادم قوته فتصرعها وتهزمها، فإنه يبادر إلى الوقوف أمام تلك ألأفكار والأشياء والقوى ليحمي فكرَه وأشياءَه وقوتَه...وهكذا تسير الحياة في أجواء الصراع، فيتولّد عن ذلك الفكر المتنوّع المتحرّك؛ والقوة المتجددة فيما يملك من أساليب الحرب وأدواتها، والأوضاع المختلفة المحيطة بالأشياء في وجوهها المختلفة. إن الله يريد أن

يشير إلى هذا القانون الفطريّ الذي سارت عليه الحياة ولا تزال في حركتها الاجتماعية»[1].

وإلى شيء غير بعيد عن هذا المعنى يذهب الشّهيد«سيد قطب»في تقديره للمسألة، فيقول عن سُننية التدافع البشريّ الذي أصله العنف المركوز في البشر بالفطرة: «لقد كانت الحياة كلّها تأْسن وتتعفّن لولا دفْع الله الناس بعضَهم ببعْض، ولولا أنّ في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليْها أنْ تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية الغريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم، وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظلّ أبداً يقظة عاملة»[8]

من هذا المنظور السننيّ الخالد، فإن قوى الشر والباطل تعمل على إبعاد قوى الخير والحق عن ساحة الوجود، وعن ساحة التأثير في الأحداث صناعة وتوجيها واستثماراً، وذلك حين يصل التلويح بالعنف إلى أقصاه: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه، لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعوذُنّ في مِلتنا. قال أوَلوكانّا كارهين﴾الأعراف٨٨. إنهما خياران أحلاهما مُرّ، فكلاهما يعني التلاشي والضمور والذّوبان، إمّا في الفضاءات الفقْر حيث تُعزل فكرة التغيير عن الناس، وإمّا في ملّة الآخر، التي هي كذلك فضاء قفْز لقيامها على الظلم والباطل!

ليتّضح من خلال أنّ المعركة تُفرض على الجماعة المسلمة فرْضا، اللهم إذا استثنينا أولئك الذين يمشون نحو الله نصف المسافة، أو يعودون من منتصف الطريق منقلبين على أعقابهم. ﴿ومَنْ ينقلب على عقبيْه فلن يضرّ الله شيْئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾-آل عمران:١٤٤.

---

(1) – محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن. الحلْقة٤. ص٢٢٠.

*من التدافع إلى الجهاد:

وعندما ينخرط الإسلام في مسألة «التدافع»، وعندما يربطه بالله منطقاً وتصوّراً، وممارسةً وأهدافا، فإن اسمَه يصير «الجهاد»، كما يتغيّر اسمُه لدى اتجاهات إيديولوجية أخرى.

إنّ المسلم مطلوب منه أن يؤمن، والمؤمنَ مطلوب منه أن يعمل الصالحات ليجد نفسه في مواجهة حتمية مع طائفة عريضة من غير الذين يعملون الصالحات، لينخرط في الصّراع الحتميّ الأزلي، الذي يتهرّب منه كثير من الناس تحت مسوّغات أنتجها الفقهاء لسلاطين الجور والزور.

«ومن ثم لابد من الجهاد..لابد منه في كل صورة..ولابد أن يبدأ في عالم الضمير فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود..ولابد من مواجهة الشرّ المسلح بالخير المسلح»[1]

إنّ طبيعة هذا الدين- ممثلة في الوسطية - وإنّ طبيعة الإيمان به - ممثلة في عمل الصالحات-هما اللذان يحتمان على المؤمنين إعداد القوّة للدفاع عن حريّة المستضعفين-كل المستضعفين-وعن حقهم وحقوقهم

وهذا الذي أدركه «فرانز فانون»، وأكّد عليه في إحدى رسائله الأخيرة إلى الدكتور«علي شريعتي»، حيث يقول:

«إن الإسلام سبَق كل آسيا وإفريقيا في الكفاح ضد الاستعمار والغرب. لماذا؟. لأن الإسلام تعرّض، قبل أي شيء آخر في هاتين القارتين إلى حملات الاستعمار، فقد كان أعداؤه الألدّاء..اتخنوا جسمه بالجراح وشوّهوه .

[1]- سيد قطب: في ظلال القرآن. المجلد١.الجزء٢. ص٢٧٠.

إني لا أحمل للإسلام نفس المشاعر التي تحملها أنت، ولكنني أتفق معك، وأؤكد على كلامك بقوة-وربما أكثر منك أيضا-بأنّ الإسلام في العالم الثالث هو أكثر العناصر والقوى (الاجتماعية والإيديولوجية) التي تستطيع مواجهة الغرب، والتي لها-بالأساس طبيعة مناهضة للغرب.

إنني آمل من كل قلبي، بأنْ يستطيع المثقفون الأصيلون في بلدانكم التمسُّكَ بذلك السلاح الجبار، بذلك الاحتياطي الضخم من الثورة المعنوية والثقافيّة الكامن في أعماق المجتمعات الإسلامية. إنّ ذلك ضرورة حيوية، ولمقاومة الأفكار والحلول والوسواس التي تتسلّل إلى بلداننا من أوروبا.

إنّ التمسّك بالإسلام ضروري لخوض تلك المعركة الدفاعية، ولإرساء الأسس من أجْل بناءِ إنسانٍ جديد وحضارة جديدة.»[1]

✻مفهوم الجهاد في إطار الصراع الدولي:

وقد نجيز لأنفسنا القولَ: إنّ الجهاد في الإسلام هو حسْن تسيير العنف وإدارة التدافع الدّولي، بما يؤدي به النّماء، وليس إلى الخراب كما هو في ظاهره.

ويقوم الجهاد الإسلامي- في بُعْده الدوليّ أو العالمي- على المرتكزات التالية:

1- الوسطية: التي تعني العدالة حتى مع أشدّ الناس بُغْضاً للإسلام والمسلمين وقديماً قال زهير بن أبي سُلْمى:

هُمُ وسَطٌ يرضى الأنام بحُكْمهم   إذا طرقتْ احدى الليالي بمعظَم

[1] – سيد قطب: في ظلال القرآن. المجلد٢. الجزء٥. ص٧٤٢.

وهذه الوسطية والعدالة ترشح الأمة الإسلامية كي تقوم بدور 2- الشهادة التي تستلزم الحضور -بالضرورة- وإمكانات الحضور ﴿وكذلك جعلناكم أمّةً وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ -البقرة:١٤٢

«وقد يكون من الطبيعي، في هذا المضمون، أن تنطلق الأمة في دورها المميز، من موقع الوعي والشمول لكلّ الساحات الأخرى على مستوى العالم، بحيث تتعرّف اتجاهاتها وأوضاعها وحركاتها وأساليبها وأهدافها، لتستطيع رصْد نقاط الضعف والقوة، والاستقامة والانحراف لديها، لتملك الحصول على المعرفة الشاملة التي تجعلها في موقع الشاهد الحيّ الواعي، الذي يعيش الحضورَ الواسع لكل التطوّرات والمتغيّرات في كل جيل، لأنّ ذلك هو الذي يجعل للشهادة عمقاً وامتداداً وسعةً لكل الأمم الأخرى التي تختلف في مضمونها الفكري ومسارها العمليّ عن الإسلام، فإنّ معنى ذلك أنّ على الأمة الشاهدة أنْ تعيش الحضور على مستوى العالم كلّه»[1]

3- الخيريّة المرتجاة، ولا نقول المعطاة، وما ينبغي أنْ يُفهم الأمر كذلك، وإلاّ عدَّ ضَرْباً من التمييز العنصري الذي جاء الإسلام ليحاربه في اليهود باعتبارهم شعب الله المختار وفي اليهود والنصارى معاً باعتبارهم أبناء الله وأحباءه، وفي غير اليهود والنصارى من العالمين. فلكي تتحقق هذه «الخيريّة المرتجاة» يجب أن يقوم إخراج الأمة على:

الأمر بالمعروف – والنهي عن المنكر – والإيمان بالله، وهذا الشرط الأخير هو الذي يجعل حركةَ الأمة موصولةً بالله، فلا تزيغ ولا تضل ولا تنحرف فتدخل في لعبة المحاور وحزب المواقع وصراع التوازنات، كما يحدث غالباً من بعض الأطراف التي تُدخل المبادئ في لعبة المصالح، فتضيع المبادئ ولا تتحقق

[1] - فاضل رسول: هكذا تكلم علي شريعتي. دار الكلمة للنشر. ١٩٨٢. ص٢٤٠.

المصالح، ومن ثم، فإنّ هذه الخيرية لن تتحقق إلاّ عبر الدور الحركي الموصول بالله، والذي لن يتحقق إلا عبْر مجاهدةٍ وجهاد حتى إذا قال الله سبحانه – بعدها – مستنفراً المسلمين: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولْدان الذين يقولون: ربّنا أخرجْنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعلْ لنا من لَدُنك ولياً، واجعلْ من لدنْك نصيرا﴾ النساء:٧٥- يَجد مَن يُلَبّي ويستجيب.

فهؤلاء المستضعفون – ودون أن يحدّد الله دينهم أو جنسهم أو لونهم أو مذهبهم – يستصرخون من أجْل دفْع عنْف قاهر يمارس ضدّهم؛ وحينها يكون من الواجب الضروري على أيّة قوّة تستند إلى الوسطية والشهادة والخيرية المرتجاة أن تتحرّك لرفْع الظلم ودفع العنف، وصدّ العدْوان على المستضعفين كل المستضعفين باعتبار«أنّ هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض»[1]

✳خاتمة:

نخلص في النهاية إلى أن العنف ضرورة حضارية، لأنّه مظهر من مظاهر الإختلاف باعتباره إجراءً سننياً خالداً، وهو منطلَق إلى أيّ فعل حركيّ واعٍ. لأن أبسط تغيير في الحياة الماديّة والاجتماعيّة، يتطلّب حداً ولو بسيطاً من [2] القوّة، أي حدّاً من العنف، فإذا أتت بنتائج ايجابية كانت قوة ايجابية، وإذا أتت بنتائج سلبيّة كانت قوّة هدّامة.

---

[1] – السيد: محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن. الحلْقة٣. دار الزهراء. بيروت. ط٣. ١٩٩٣. ص:٥٩.

[2] – سيد قطب: معالم في الطريق. دار الشروق. القاهرة. ط١٠. ١٩٨٣. ص٦٦.

وربما، نستطيع في منظور الاختلاف والتدافع أن نعيد قراءة آيةِ — أو آيات – السَّيف، حتى تتَّضح المسألة بعيدا عن تفريط أولئك الذين يعتبرون الحياة سِلْما دائمة، وعن إفراط آخرين لا يفهمون الجهاد إلاّ قتالاً وسفْك دماء.